فلسفة الاختلاف كأساس أنطولوجي للتفكير
- جيل دولوز أنموذجا -

The philosophy of difference as an ontological basis for thinking
- Gilles Deleuze as a model -

حاجة بن ناصر*

[1] جامعة بن خلدون –تيارت- (الجزائر)، hadja.bennaceur@univ-tiaret.dz

تاريخ الاستلام: 2022/11/.30 تاريخ القبول: 2024/01/13 تاريخ النشر: 2024/.06./10

ملخص:

حملت الحقبة المعاصرة تحت لوائها مستجدات معرفية وفلسفية ودشنت فكر الإختلاف والمغايرة ويعد جيل دولوز واحد من هؤلاء، فحمل هم موت الفلسفة وإنتهائها، وقاوم كل فكر أو علم سلب الفلسفة وجودها وديمومتها، وأعطى لها دورا فاعلا في التاريخ وهو خلق المفاهيم وإبداعها، وربطها بحقول علمية وفنية، فما فحوى الفلسفة الدولوزية، وكيف يمكن أن نؤسس لفلسفة الاختلاف، وما هي الصورة الجديدة التي منحها للفكر؟.

الكلمات المفتاحية: إبداع المفاهيم، حقول فنية، المقاومة، موت الفلسفة، الاختلاف.

Abstract

The contemporary era carried under its banner epistemological and philosophical developments and inaugurated the thought of difference and heterogeneity. Gilles Deleuze is one of them. What is the content of Deluzian philosophy, how can we establish the philosophy of difference, and what is the new image it gave to thought?.

Keywords : Creative concepts, artistic fields, resistance, the death of philosophy, difference.

* حاجة بن ناصر

مقدمة:

"في يوم ما قد يصير هذا العالم دولوزيا" هي عبارة لميشال فوكو بمناسبة احتفاءه في مقال بصدور كتابين هامين لجيل دولز Gilles Deruleuze (1925-1995) وهما "الاختلاف والتكرار" و"منطق المعنى"، لكن لماذا دولوز بالضبط مع أن قائمة كبار الفلاسفة الغربيين طويلة؟.

إن الحديث عن جيل دولوز كواحد من أعمدة الفلسفة الغربية المعاصرة، وممثلي الثقافة الفرنسية، يحيلنا مباشرة إلى الخوض في فلسفة أعطت صورة جديدة للفكر ولم تكن معهودة من ذي قبل، فتجاوزت بذلك فلسفة الوعي، والماهية، ووحدة الوجود إلى فلسفة الغيرية والهامش، والمتعدد لتعبر عن إمكانات مختلفة ومغايرة للفكر وللوجود وأنماط متجددة الحياة والإبداع وتؤسس لفكر اختلافي ولفلسفة الاختلاف.

لقد تعالت أصوات دولوز وتصدت كتاباته ضد كل من دعا إلى رفض الفلسفة وأعلن عن موتها، وشقت فلسفته مسالك ومشارب غير مألوفة، وانفتحت على اللافلسفي وعلى ما يسمى بالهامش، بانفتاحها على لائحة من المباحث والموضوعات غير فلسفية من أدب ومسرح والسينما، وتحليل نفسي، وغيرها، فكيف استطاع دولوز أن يؤسس لفلسفة جديدة تجاوزت القوالب الجاهزة وأعدت لمفهوم التجديد والإبداع؟ ما هي الصور الجدمورية المعتمدة للتغيير ولتأسيس خطاب الغيرية ومنه إلى فلسفة الاختلاف؟ ما هي إسهامات هذا المفهوم في تحديد الفكر وبناء صور جديدة له؟.

الإجابة عن هذه التساؤلات تتطلب منا التطرق إلى مفهوم الفلسفة عند دولوز، وإلى أهم الصور الجدمورية المبرزة لفكر الاختلاف لديه، من منطلق العلاقة التي أقامها بين الفلسفة واللافلسفة وأقصد بالذكر الفن، والسينما، والتحليل النفسي...، وكذا الديمقراطية كأفضل نظام سياسي للمجتمع المعاصر، وهو الأمر الذي وسّم فلسفته بالطابع الفسيفسائي، الزئبقي، إذ تدفع المشتغلين عليها إلى مغامرة فكرية جديدة متفتحة الأفاق ومتحررة من كل مركزية وتقوقع منهجي ونسقي.

تنطلق فلسفة الاختلاف من مفاهيم مغايرة ومناقضة لمفاهيم الفلسفة الكلاسيكية، منها فكرة الأساس، الهوية، المركز، النموذج، وغيرها من المفاهيم المفاهيم التي طبعت الفلسفة النسقية، وينتقد دولوز هذه المفاهيم ليؤسس لفلسفة جديدة تؤمن

بالاختلاف وتنطلق منه، وتعمل على خلخلة السرديات الكبرى، وزعزعة أبنيتها، مقيما قطيعة ابستمولوجية مع الفلسفة القديمة محملا إياها مسؤولية ما أسماه بالخطأ الطويل أي التمثل "هو صلة المفهوم بموضوعه تحت هذا المظهر المزدوج ويتحقق في الذاكرة والوعي الذاتي " (دولوز، 2009، صفحة 23)، وهذا يعنى أن التمثل يجعل من الفكر وموضوعه أمرا واحدا، ويجعل من مواضيع التفكير مماثلة لتصوره، كما يعتبر أن المفاهيم والتصورات مماثلة للموضوع في الواقع، وهو ما يبعد الفكر عن مدركات لا واقعية تفوق نطاق إنتاج الذات لتلك التمثلات، ومن ثم استبعاد الاختلاف والمغايرة، "لذلك تهمل في التمثل الاختلافات الصغيرة لصالح التشابهات الكبيرة" (دولوز، 2009، صفحة 25).

فالذات في نظر دولوز لا تنتج التمثلات بل هي بحد ذاتها مُنتَجَة من قبل سلسلة من التصدعات والتشققات، والتركيبات المختلفة التي يحدثها الزمن ومختلف الأحداث، وللخلاص لمفهوم التمثل بنوعيه المتناهي ممثلا بأفلاطون وأرسطوا، واللامتناهي والممثل دلينتز وهيجل "يستعين دولوز للخلاص من نموذج التمثل بمفكرين كبار غير تقليدين ويعتبرون غرباء عن الفكر الكلاسيكي منهم كيركجارد، ونيتشه". (دولوز، 2009، صفحة 25)، مستلما من فريديريك نيتشه مفهوم الفلسفة باعتبارها تفكيرا شبيها بالفن، فليست الحقيقة من منظور نيتشاوي ما يتطابق مع العقل، أو الواقع وإنما هي عملية تأويلية من صنع إرادة الإقتدار لعالم لا يقيني يتميز بالصيرورة والتغير، فالحقيقة أضحت خلقًا من إنتاج الإرادة المجاوزة لكل ما هو سلبي ولا أخلاقي، لا قيمي، والمؤسسة للمبادئ والقيم ذات المعنى الإيجابي للحياة، فمع نيتشه إذن ثم تجاوز الفلسفة كبحث عن الحقيقة التي أرهقت كاهل الفلاسفة الكبار من أمثال، أفلاطون، ديكارت، وغيرهم...، ومع هراقلطس استعاذ دولوز مفهوم العالم كصيرورة، ضمن هذا السرح الفلسفي يطرح سؤاله، ما الفلسفة؟ ويجد نفسه مرغما على اقتحام جدل الاختلاف والتكرار، فما الاختلاف؟، وما التكرار؟، وما تعريفه للفلسفة؟.

1. الاختلاف:

في كتابه الاختلاف والتكرار(1968): وهو من أبرز مؤلفات دولوز وعنوانا لأطروحته قي الدكتوراه يجمع بين التقليد والتجديد، بين الأصالة والإبداع، ويتناول بالدراسة عدد كبير

من الفلاسفة من أمثال، برغسن، هيوم، كانط، سبينوزا وغيرهم...، وليس الهداف هو العودة إلى تاريخ الفلسفة، فما الذي توخاه من هؤلاء؟، "في الواقع يجمع هذا الكتاب في كل أصيل سبقه من دراسات تمهيدية في تاريخ الفلسفة، تناولت عددا من الفلاسفة وقرأت نتاجهم قراءة خاصة، وتقوم هذه القراءة على إحياء أفاهيمهم، وتجديدها من أجل استخدامها في المسائل الراهنة للقول الفلسفي المعاصر، وتقوم أيضا على إبراز مسائلهم الفلسفية، وإبراز صورة الفكرة لديهم، فتاريخ الفلسفة هو إعادة إنتاج للفلسفة ذاتها". (نعيم، 2010، صفحة 183).

وما يمكن استخلاصه من هذا القول أن الغرض من الرجوع إلى الفلسفات السابقة والتطرق إلى جمهرة من الفلاسفة ليس هو التكرار والمعاودة، والسير على خطى هؤلاء، بل هو استخراج الجديد من القديم، وإبداع صور جديدة للفكر، وتحديد مفاهيمهم بإبداع أسلوب لغوي جديد، وينوه في هذا المقام بقيمة أسلوب نيتشه في الكتابة المتميز بالطابع الشعري الفني، وبالإطار الخارجي فقراءات كتابات نيتشه لا تتطلب مجهودا من القارئ للولوج في باطنها كي يدرك معناها ويصل إلى فهمها، يكفي التعامل مع نصوصه في جانبها الخارجي، فلا يهمنا إن كان نيتشه فيلسوفا ثوريا أو ماركسيا أو فاشيا بل المهم هو التعامل مع النص كفضاء خارجي، ولعل هذا ما جعل كتاباته تختلف تماما عن سابقيه الذين ألحوا على ضرورة فهم الباطن لفهم الظاهر هذا فضلا عن استخدام نيتشه لعدة أساليب في الكتابة منها السخرية، اللانسقية السرد مثلما هو في كتابه هكذا تكلم زرادتش مما يضفي على نمط كتاباته التعدد والتنوع، والتفنن في استخدام الأسلوب، إذ يدمج نيتشه في الفلسفة وسيلتي تعبير هما الشذرة والقصيدة "أريد أن أبدي ملاحظات عامة سريعة حول فن الأسلوب لدى، توصيل حالة ما أو توتر داخلي تحدثه الانفعالات عن طريق العلامات، وكذلك إيقاع هذه العلامات: هذا هو المعنى الحقيقي لكل أسلوب، وبما أن الانفعالات هائلة ومتعددة فإن إمكاناتي الأسلوبية متنوعة ومتعددة، بالاختصار أنا قادر على الفن الأكثر تنوعا للأسلوب مما يتوفر للإنسان وفق إرادته" (فريديك، 2013، صفحة 71).

ويعتبر نقد مبدأ الهوية في فلسفة الاختلاف الدولوزية مهمة أساسية، كما نجده يرفض مبدأ الأساس باعتباره مقرونا بمبدأ الهوية، فكل فكر يتأسس على هذين المبدأين يقصي من مجاله الاختلاف ، ويقيم علاقة بمفهوم المركز، ويطور دولوز مسألة الاختلاف بالعودة إلى نيتشه من خلال فكرة العود الأبدي، وإرادة الاقتدار، ولا تعني هذه الأخيرة القوة أو السلطة أو الرغبة في السيطرة، إنها عصر إنتاج الفرق الكمي والكيفي في القوى "إن العلاقة الجوهرية بين قوة وأخرى، لا تتصور بتاتا لدى نيتشه كعنصر ناف في الجوهر، ففي علاقة القوة التي تفرض طاعتها بالقوة الأخرى، لا تنفي الأخرى أو ما لا تكونه، إنها تؤكد اختلافها الخاص بها وتستمتع بهذا الاختلاف" (دولوز، 1993، صفحة 14).

ومن جهة ثانية لا ينبغي الاعتقاد أن مفهوم العود الأبدي، يعني عودة الشيء نفسه إن ما يعود ليس هو – هو لا بالشبيه ولا بالمطابق، ولقد رفض زرادتش في كتاب نيتشه هكذا تكلم زرادتش اعتبار العود الأبدي دائرة معلنا عدم رغبته في الحديث عنه بهذه الصيغة ويؤول هذه الفكرة دولوز بالتكرار، فالعود الأبدي هو المتكرر الذي يختار وينتقي من الإرادة ما يؤهله للإبداع، إن فكرة العود الأبدي وإن كانت قديمة قدم الفلسفة ذاتها، إلا أنها بالمفهوم النيتشاوي مختلفة تماما لأنها تعبر عن صيرورة منتجة متدفقة بالإنجاز والإبداع "إننا نفهم أن نيتشه لا يتعرف على فكرته عن العودة الدائمة لدى سابقيه من العصر القديم، فهؤلاء لم يكونوا يرون في العودة الدائمة وجودا لصيرورة بما هي كذلك واحد المتعدد أي العدد الضروري المنبثق بالضرورة من كل الصدفة، وربما باستثناء هيراقلطس لم يكونوا قد رأو حضور القانون في الصيرورة، واللعب في الضرورة" (دولوز، 1993، صفحة 41).

يتعين الاختلاف إذ من المنظور الدولوزي بمحطات أساسية وبفلسفات هي في غاية التعدد والتنوع والمتمثلة في:

_ تجاوز مقولات الهوية والأساس والتمثل والتجديد كإحالة لمفهوم المركز إلى الاختلاف والتعدد والتأسيس والكثرة.

_ تجديد صورة الفكر واعتبار اللامفكر فيه موضوعا له، والأخذ بعين الاعتبار الهامش والاختلافات الصغيرة والثانوية في مقابل المتشبهات الكبرى، والجوهر والماهية.

_ التطرق إلى الفلسفات السابقة لا بغرض التكرار بل بهدف التنقيب عما هو خفي وما يتسم بطابع الجدية والحداثة، "إذ ليس المهم في الفلسفة لا البداية ولا النهاية، هناك نوع من المخاطرة التي يديرها، ونوع من الحدثية لتاريخ الفلسفة فبدل أن نؤرخ علينا أن نجعل من الفكر حدثا، ذاك هو صباح الجديد الذي يبشر به دولوز". (بوعلي، 2014، صفحة 177)

_ تجديد مفاهيم الفلاسفة الأوائل بقراءة نصية تأخذ في الحسبان التنويع في الأساليب بحسب تعدد النصوص واختلافها وكذا طبيعتها وباختصار يمكن القول أن دولوز عمل على زعزعة الفكر وخلخلة أبنيته عبر الترحال من حقل فلسفي قاحل متمسك بالمبادئ الأولى يسجن الفلسفة ويحد من فعاليتها إلى حقل آخر خصب يزج بالاختلاف، ويزخر بالإبداع وفعل الخلق ويثمن الكثرة، ويمنح للفلسفة حضورا يتماشى مع عصرها، ويتأقلم مع كل مجالات الإنسانية، وانفتاحات الفكر وصوره.

2. التكرار:

يصير الاختلاف بين التكرارات (دولوز، 1993، صفحة 540)، تظهر العلاقة بين هذين المفهومين في علاقة استلزام، إذ لا يمكن فهم الاختلاف من دون تكرار والعكس صحيح، لكن على كل من الاختلاف والتكرار أن يتحرر من كل تشابه وتماثل، وكل تناظر ومن كل هوية وهي الخصائص الأربعة التي تطرد من مجالها الاختلاف في نظره، ويرفض دولوز فهم التكرار انطلاقا من فكرة الهوية أو التشابه كون التكرار الحقيقي في نظره هو الاختلاف لا العودة إلى النسخة الأصلية، إنه ينتج دوما المختلف، ولا ينسخ المفهوم ذاته، وهذا ما يميز مفهوم التكرار الدولوزي عن صورته في الفلسفة الكلاسيكية التي نظرت إليه على أنه إجترار فإذا كانت صيغة التكرار في هذا النسق "أ" هي "أ" فإنه المعنى الدولوزي هي "أ" أو، "أ" هي "ب" إنها صورة جديدة تحمل هوية مخالفة، ليس التكرار إذن تكرار العينه إنه تكرار مختلف.

ووفق المنظور الدولوزي ينبغي التفرقة بين نوعين من التكرار، لاختلاف خصائص كل منهما فالأول يسميه تكرار المساواة ويصفه بالسلب، وهو تكرار العينه، أو ذات الشيء مرتبط بهوية المفهوم وبالتمثل، وهو التكرار السائد والذي يستبعده تماما دولوز، أما الثاني فهو تكرار دينامي، يشير إلى الاختلاف ويعبر عنه كونه خارجي عن المفهوم، يحمل معنى

الإبداع، والإنتاج والجدة "أحدهما يتعلق بالأثر الشمولي المجرد، والجامد يحيل إلى المفهوم عينه، ولا يحفظ إلا اختلاف خارجي بين نسخ عادية من الشكل عينه... الأخر يتعلق بالسبب النشيط أو الفاعل، إنه دينامي، ينتقل في كل لحظة من نقطة بارزة إلى أخرى" (دولوز، 1993، صفحة 55).

ويرجع دولوز إلى دافيد هيوم في تحديد معنى التكرار والمعاودة، وما يأخذه من فيلسوف النزعة التجريبية هو المعاودة من خلال التجربة العلمية، التي تسمح بتكرار الظاهرة دون أن تغير منها، وبالمحافظة على شروطها الطبيعية، بينما يحدث التغيير في الفكر الذي يدرسها ويهتم بها، فالتكرار والمعاودة تحدث على مستوى الفكر لا الظاهرة، وظاهرة التتابع الزمني وتعاقب الظواهر الواحدة تلوى الأخرى، كتعاقب الليل والنهار، والفصول الأربعة... يحدث تعبيرا فكريا على مستوى المخيلة، لهذا السبب رفض هيوم القول بالعلية بين الظواهر وأرجعها إلى العادة، والنتيجة حسب دولوز هو أن هذا التعاقب والعودة التي تحدثها العادة هي اختلاف والزمان أعيد دمجه في لحظة راهنة هي الحاضر، وفي التكرار يندمج الماضي والمستقبل في الحاضر و"التوليفات الزمنية التي تؤسس التكرار ثلاث، الأولى، الحاضر الحي للعادة، الثانية الماضي المحض للذاكرة، الثالثة الشكل الفارغ للزمن "والأنا الفاعل" المصدوعة". (دولوز، 1993، الصفحات 27-28)، ينظر دولوز إلى التكرار لا كعادة ولا كذاكرة، وإنما ما هو آتٍ، أي ما يرتبط بالمستقبل، وما يأتي هو أكيد بالنسبة لدولوز، وهكذا تصبح فكرة التكرار مرور بكل المراحل والأزمنة.

ويعود دولوز إلى الفيلسوف الفرنسي "هنري برغسن" فيلسوف الحدس في تحديد معنى الزمان وعلاقته بالذاكرة، فالذاكرة تعمل على استرجاع ما مضى فعلى مستواها هناك ماض خالص، فكيف يمكن لزمن مضى أن يؤثر في ما هو حاضر، وحسب دولوز يتم ذلك من خلال التكرار، لحظة إلتقاء الماضي بالحاضر، أي من تزامن مرحلتين مختلفتين لتحقيق الممكن، "هناك ذاكرتان أو وجهان للذاكرة، مترابطان بصورة وثيقة جدا، الذاكرة -التذكار والذاكرة –التقلص، إذا طرح السؤال أخيرا ما هو سبب هذه الثنائية في الزمان، سوف نجد بلا ريب في حركة سندرسها لاحقا ينقسم بها (الحاضر) الذي يدوم في كل (لحظة) إلى وجهتين إحداهما موجها وممددة نحو الماضي، والأخرى متقلصة تتقلص نحو المستقبل" (دولوز، 1997، صفحة 54).

3. ما الفلسفة:

ما الفلسفة؟ هو سؤال طرحه جيل دولوز ليس بالجديد ولا القديم، ليس بالجديد لأنه قديم قدم الفلسفة ذاتها، فلقد طرح قدماء الفلاسفة هذا التساؤل منذ الحقبة اليونانية، وراح كل واحد منهم يعرفه على شاكلته فهي محبة الحكمة بالمعنى الفيثاغوري والبحث في الوجود بما هو موجود، حسب التصور الأرسطي، وربطها كارل ياسبيرز، بطرح التساؤل، إلى درجة أنه لا يمكن حصر معناها في تعريف واحد، وليس بالقديم فبعدما تبين لجيل دولوز دوغمائية الفكر الغربي، وانسداداه وتقوقعه حول فلسفة الأنا ووعي الذات وانشغل بالبحث عن سبيل الخروج من طرقها المسدودة النافية للاختلاف والمقصية لعلاقة الأنا والآخر، والحاجبة لدور اللافلسفة والسيمولاكرا في إنتاج المعنى وتحقيق الإبداع.

ولا يفوتنا الحديث بأن العقل والعقلانية الغربية شكل بؤرة النقد الفلسفي في قيمتها ونتائجها من قبل العديد من الفلاسفة الغربيين، ورفضوا كل تفسير قام على أحادية المنهج منها الفلسفة الظواهرية إذ لخصت أزمة الفكر الغربي في كتاب إيدموند هوسرل "أزمة العلوم الأوروبية "لقد كان المطلب الدائم للفلسفة منذ بدايتها الأولى، أن تكون علما دقيقا، بل أن تكون ذلك العلم الذي يفي بأعمق المقتضيات النظرية العقل" (هوسرل، 2002، صفحة 23)، "ونفى كارل ماركس عن الفلسفة القدرة على فضح تشوهات الفكر ومجاوزة طابعه التأملي، وكذا نقد الأوضاع الاجتماعية التي آل إليها المجتمع الرأسمالي فهي غارقة في تجريدها وأعلن الفيلسوف الأنطولوجي الألماني مارتن هايدغر نهاية الميتافيزيقا، فهي نظره تجاهلت الاختلاف بين الوجود والموجود ويخذ الوجود الإنساني، أو الدازاين كموضوعا للفكر مأخوذا في سياق اختلافه، لكن ما هو دور الفلسفة إزاء كل هذا هل تنهار وتموت وتنسحب من الساحة الفكرية، وتعلن عن فشلها إزاء الراهن ومقتضياته والعقل وإنتاجاته؟.

يجيب دولوز على أن السبب في توجيه أصابع الاتهام ضد الفلسفة هو إهمالها لمهامها في صنع المفاهيم والإبداع، وأن مهمتها قد اختلفت عما كانت عليه سابقا، فلم تعد ذاك التفكير التأملي المجرد ولا نسقا كاملا بل أضحت ثورية لا تتوقف عند حدود معينة تزداد تنقلا من حقل لآخر لتنفتح على الإنسان والعالم "ولم يفقد دولوز يوما ما ثقته بالفلسفة ولا بدورها في تحرير الإنسان، ولهذا رفض بشدة بعض المقولات الشائعة الموروثة من هيجل وهايدغر مثل "نهاية الفلسفة" أو تجاوز الميتافيزيقيا...، إن ما يضمن للفلسفة استقرارها هي

أنها تقوم دائما بمهمة لا يمكن للعلم أو الفن أن يحل محلها فيها وهي إبتكار المفاهيم". (مغيث، 2011، صفحة 28).

اختلفت مهمة الفلسفة إذن مع دولوز عما كانت عليه سابقا، وفي هذا المعنى يقترب من ميشال فوكو الذي يطمح في جعل الفلسفة نشاط إبداعي تشخيصي لما هو معاش، إذ يتفقان على أنها تحمل طابع التعدد والتنوع، لا التعالي والتجريد باعتبارهما من ورثة الفلسفة النيتشاوية رفضا الأنساق الفلسفية وبالذات النسق الهيجلي الذي اعتبر أن الفلسفة هي العلم بإمتياز، وهي الروح المطلق، مقيما علاقة ودية بين الفلسفة والعلم والفن، لكن هل يمكن حقا تجاوز النسق الهيجلي؟، هل الفلسفة نشاطا تفكريا حول العلوم والفنون أم أنها تفكير أصيل مستقل عن كليهما؟.

يجيب دولوز بأن الفلسفة بحاجة إلى علوم عصرها لا لتفكر فيها بل لتمارس نشاطا مستقلا عنها، فهناك تمايز اختلاف بين الفن والعلم والفلسفة، ولكل واحد منهم أدواته المعرفية ومجالاته الفكرية ضف إلى ذلك اختلاف في المواضيع واللغة والهدف، ومع هذا يرى دولوز أنه ثمة تقاطع بين الفلسفة والعلم والفن، فلفلسفة تنتج مفاهيمها من العلاقة التي تجمعها بالفن والعلم "أما أوجه الالتقاء بين الفلسفة والعلم فيمكن الظفر بها من الوجوه التالية...، ففي كليهما يوجد تنوع وتغير، مجال الالتقاء أن هذا التنوع يجعل كلا من الفيلسوف والعالم، يعرف ما يستطيع فعله وما لا يستطيع فعله، أكثر من ذلك يعرف كلاها متى يكون إيجابيا مع مجاله الذي يتحرك فيه". (بوعلي، 2014، صفحة 285).

ولقد استلهم دولوز مهمة الفلسفة من نيتشه حتى لقب بالفيلسوف النيتشاوي ونيتشه الفرنسي، وتصوره عن الفلسفة يوضحه دولوز في كتابه نيتشه والفلسفة، مبرزا الدور والإضافة التي قدمها فيلسوف القوة للفلسفة مقارنة بأسلافه بوصف فلسفته كفلسفة مضادة لما هو شائع، لقد أسس إيمانويل كانط النزعة النقدية، استطاعت في الحقبة الحديثة أن تفك الصراع بين اتجاهين هامين في تاريخ الفلسفة، وهما المذهب العقلي والمذهب التجريبي، الأمر الذي جعل فلسفته تزداد أهمية خاصة في الوقت الحالي، ويتجلى ذلك في ظهور الكانطيين الجدد من أمثال جون راولز، إلا أن كانط في نظر نيتشه لم يقم بالنقد الحقيقي لأنه لم يربطه بالقيمة.

ولم يعرف طرح مشكلاته بتعابير القيم، ويعتبر دولوز أن إدخال القيمة إلى الفلسفة هو الإنجاز الحقيقي للنقد، فالفيلسوف عالم هو عالم نسابة، وتعني قيمة الأصل، والعنصر التفاضلي للقيم لا قاضي محكمة كما يذكر دولوز على طريقة كانط الذي جعل من العقل المشرع والممثل للقوانين والقواعد التي يشرعها، الحاكم والمحكوم، القاضي والمتهم في آن واحد "تعني النسابة إذا الأصل، إنها تعني النبل والخساسة، النبل والدناءة، النبل والانحطاط في الأصل، فالنبيل والدنيء، السامي والخسيس ذلكم هو العنصر النسابي، بحصر المعني أو النقدي، لكن النقد المفهوم هكذا هو الأكثر إيجابية في الوقت ذاته" (دولوز، 1993، صفحة 07).

لقد أوضح دولوز في العديد من الفقرات من كتاب نيتشه والفلسفة موقف نيتشه من كانط، فهو فيها يبدوا موقف اختلافي إن لم نقل موقفا عدائيا، لم يترك كانط النقد لأي محك آخر أو هيئة خارجية عن العقل غير العقل، فهو الناقد والمُنْتَقَدْ، ولم يجد نيتشه سوى العود الأبدي وقوة الإدارة، كأساسيات ومحركات للنقد و"يظل النقد الكانطي جزئيا فهو لا يسائل المعرفة، بحد ذاتها بل الطموح إلى المعرفة، ولا يسائل الأخلاق وإما دلاله معينة للأخلاق... فقد تصور النقد كقوة يجب أن تتناول كل إدعاءات الأخلاقية لكن ليس للأخلاق ذاتها". (الدين، 2014، صفحة 47)، ويظهر دولوز في كتابه نيتشه والفلسفة في عنصر تحديد النقد الاختلافات البارزة بين النقد الكانطي والنقد النيتشاوي التي يتعين تحديدها قي ما يلي:

انطلق كانط في نقده للعقل من العقل واتخذ نيتشه من إرادة القوة كمبدأ تشريعي وداخلي الهيئة النقدية و المبدأ الأصلي لعملية النقد

العقل هو المشرع لدى كانط نمو قاضي مهمته توزيع القيم السائدة، بينما المشرع لدى نيتشه هو فيلسوف المستقبل، والتشريع يعني خلق القيم لا توزيعها "إن الفيلسوف بوصفه فيلسوف ليس حكيما يكف عن الطاعة، ويستبدل الحكمة القديمة بالقيادة ويحطم القيم القديمة ويخلق القيم الجديدة، المعرفة، إبداع بالنسبة إليه، وعمله يقوم على سن القوانين وإرادة الحقيقة لديه إرادة قوة". (دولوز، 1993، صفحة 118).

الغاية من النقد تحقيق الإنسان الأسمى المتجاوز لذاته وليست الغاية التي يحددها ويرسمها الإنسان والعقل.

لقد شرع دولوز في نحته لمفهوم الفلسفة من خلال التطرق للعديد من الفلاسفة من أمثال ميشال فوكو، وفريديريك نييتشه هذا الأخير الذي مهد الطريق لمفهوم الإبداع لدى دولوز مبشرا بالدور الجديد والمهمة الخلاقة للفلسفة ولقد حظي هذا الفيلسوف بمكانه بارزة ضمن الفضاء الفكري الدولوزي، فإن نفكر يعني أن نبدع أن نخلق قيم جديدة لا أن نرسخ قيما سائدة، وأن نعطي للهامش، واللاحدث، وللهزل والسخرية مثلما نعطي للعقل والنبيل والحدثي حقا في المعرفة وفي الوجود، "يمتاز نيتشه بكونه الفيلسوف الذي أدخل مفهوم القيمة، والأصل والقوة إلى الفلسفة فحول الفلسفة بالتالي من الاشتغال على الحقائق، إلى الحفر عن أصول القيم وقيم الأصول بما قيمة ومفهوم الحقيقة نفسها". (حدجامي، 2012، صفحة 48).

ما هي الفلسفة؟ سؤال طرحه دولوز وهو عنوانا لأبرز كتبه إلى جانب الاختلاف والتكرار ومنطق المعنى، وهو عمل مشترك أنجزه إلى جانب صديقه فليكس غتاري، بين فيه أن الأزمة التي تتخبط فيها الفلسفة منذ عقود هو أنها لم تفهم على حقيقتها وظلت بعيدة كل البعد كل البعد عن الواقع تائهة في فضاء الميتافيزيقا، وما أراده هذا الفيلسوف هو ابتكار طريقة جديدة في التفكير لزرع حيوية الفكر الفلسفي، معلنا أن الساعة قد حانت للحديث عن الفلسفة والتكلم بصورة دقيقة عن مفهومها، معترفا بعجزه وقصوره عن الإجابة في زمان الشباب إلى أن سطع الحل في وقت متأخر في زمن الشيخوخة، وهو زمن التخلص من كل ما يكبل الفكر ويقف أمام جريانه واستمراريته، إنه زمن القضاء على سلطة المعرفة، وثبات المعنى والنزوع نحو كل ما هو مختلف ومغاير ومتعدد، ليصرح أن الفلسفة هي خلق المفاهيم، هي فن تكوين وإبداع المفاهيم "إن الفيلسوف صديق المفهوم، إنه بالقوة مفهوم مفاد هذا أن الفلسفة ليست مجرد فن تشكيلي، وابتكار وصنع المفاهيم، ذلك لأن المفاهيم ليست بالضرورة أشكالا، أو اكتشافات أو مواد مصنوعة، إن الفلسفة بتدقيق أكبر هي الحقل المعرفي القائم على إبداع المفاهيم". (دولوز، 1997، صفحة 30)، ويدل الإبداع على التجديد والمقاومة، وإنتاج مفاهيم جديدة تواكب صيرورة العصر، وتمنح للفلسفة حضورا قويا وضروريا في المناحي المختلفة للحياة.

4- فلسفة الاختلاف والفن: ما علاقة فلسفة الاختلاف بالفن؟

أولى دولوز للفن أهمية فائقة لما يحمله من معنى اختلافي، فالفن لا يختلف مهامه عن مهام العلم والفلسفة إنه يشارك الفلسفة في إبداع المفاهيم، ليست مهمته التغيير أو تمثيل الواقع أو اجتراره بل هو إبداع حالة ليس لها وجود سابق، يعبر الفن عن الالتقاء بين الفلسفة واللافلسفة، لقد شق دولوز الطريق للفلاسفة كي ينفتحوا على مواضيع غير فلسفية وغير معهودة من ذي قبل من أدب وشعر، وسينما ومسرح، ودفع بهم للبحث عن صور جديدة للفكر، فلكي يكون المرء فيلسوفا عليه أن يكون مبدعا والإبداع قرين الفن وعليه يمكن الحديث عن الفيلسوف الفنان المنصرف عن التقليد والمحاكاة بالمعنى التقليدي إلى الخوض في التفكير الفلسفي كنشاط فني وإبداعي يغير صورة الفكر وأشكال التعبير ويعتبر الإبداع إذن القاسم المشترك بين الفلسفة واللافلسفة كلاهما، عبر عن إمكانات جديدة لكينونة الإنسان، وانفتاح غير معهود للذات على العالم "فالفن والفلسفة ينفتحان على التجارب الحيوية الإنسانية من خلال تناول أنواع التفكير والفنون التي ظلت مهمشة ومقصية من التناول النظري ." (حموم، 2012، صفحة 59)

إن العمل الفني هو عمل إبداعي يتولد وينتج باستمرار عن واقع معلوم إلى مستقبل مجهول، والوقائع المنتجة تصير موضوعا حيا للفن، تشكل عالم بديل للواقع إنه يتجاوز التكرار والتمثيل، ويتحرر من عمل الذاكرة إلى دور الخلق الإبداع، فهو ليس محاكاة لواقع أو سرد لذكرى ماضية، إنه تجربة خلاقة، ويشترك الفن مع الفلسفة في إعداد المفاهيم ونحتها ومن خصائص المفهوم أنه غير قابل للتعريف لأنه منتج ومتكثر، مركب من عناصر تؤلفه وتعبر عن محتواه متفتح على غيره في علاقة لا نهائية ومستمرة مع مفاهيم أخرى إنه حي ويتجدد باستمرار وبكل حرية، والمفاهيم ليست معطى جاهز بل يجب أن تنتشل من الأرض وتحمل بصمة صانعيها كمفهوم السلطة عند فوكو، والعود الأبدي عند نيتشه...، والإبداع المفاهيمي هو مجال اشتغال الفلسفة والفن ولا يعني الإبداع التواصل بل المقاومة، إنه دائم الحركة "إن عملية إبداع المفاهيم هي تقنية أمام الفيلسوف الذي يستخدمها في مواطن شتى وهي تخرج من جوف الكتابة الفلسفية كما يخرج المولود الجديد من بطن أمه عبر سلسة من المعاناة، ليفضي في النهاية إلى بروز المفهوم كاملا، بعد أن ترعرع في رحم نظام الأفكار الذي يؤسسه " (مهيبل، 2007، صفحة 195).

والفيلسوف هو من مفكر بطريقة جديدة ويبدع مفاهيم جديدة أو يجدد مفاهيم قديمة وهذا ما فعله دولوز إذ أعاد قراءة الفلاسفة السابقين في ثوب جديد، بغية جعل السابق في خدمة الراهن، وبهذا يدعوا دولوز إلى الرحيل والترحال، ولقب بالفيلسوف الرحالة وللمفاهيم مسطحات محايثة وهي الأرضية التي تعمرها المفاهيم، هذا إضافة إلى الشخصيات المفهومية إنها كالشخصيات الروائية والفيلسوف هو قناع لشخصية مفهومية مثل ديونيزوس لنيتشه "وعلى ضوء ذلك تتحدد الثلاثية الفلسفية في معمارية دولوز وهي الترسيم (المسطح) والاختراع (الشخصيات المفهومية) والإبداع إلى (المفاهيم الفلسفية)". (الزهرة، 2013، صفحة 1092).

ومن النماذج الفنية التي تعبر عن فكر الاختلاف لدى دولوز، السينما والأدب والأسلوبية، واهتمام دولوز بالفن السينمائي يعكس مؤلفه سينما 1- الصورة - حركة (1983) وكذا سينيما 2- الصورة – زمان (1985)، يبرز دولوز في هذين الكتابين علاقة الفلسفة بالسينما وتقاسمهما مهمة الإبداع فالفلسفة تبدع مفاهيم والسينما تبدع صورا وما هو مطلوب هو إبداع مفاهيم لهذه الصور "لقد بدا لنا أن كبار كتاب السينما يمكن مقارنتهم لا بالرسامين، والمعماريين، والموسيقيين فحسب، بل بالمفكرين أيضا، ذلك أنهم يفكرون من خلال الصور /الحركة، والصور / الزمن بدل أن يسوقوا المفاهيم" (دولوز، 2009، صفحة 14).

لقد حاول دولوز من خلال هذين الكتابين تبيان دور السينما كهامش وكحقل لا فلسفي في التأسيس لما هو فلسفي، ولم يتناول في دراسته هاته تاريخ السينما أو الفن أو التفكير حول السينما أو كيفية اشتغالها، وإنما البحث عن صور الفكر في الحقل السينمائي "إنما السينما حسب دولوز تفكر، ولكن عبر المشاعر والانفعالات لا عبر الصور بمختلف أنماطها، ولكنها تفكر من دون مفاهيم، يبقى الفلسفة إبداع المفاهيم التي لم تستطع السينما إبداعها"، (معزوز، 2017، صفحة 24)، تهدف السينما إذن إلى تغير الواقع لا التعبير عنه، فالصورة الفنية والعلامات السينمائية لا معنى ولا قيمة لها إلا من خلال الفكرة التي تبدعها، وأساليب التعبير التي تتحدث بها، دور الفن عموما هو إنتاج الوسائل التعبيرية وإنتاج المعنى ومجموع الصور السينمائية هي علامات والعلامة ذات معنى.

ما يمكن استخلاصه من جراء هذا التحليل هو أن الفكر الدولوزي له سمات منفردة تجعله متميز عن فكر سابقيه أهمها:

– أن الفلسفة الدولوزية فلسفة انتقائية إذ أولى لعدد من الفلاسفة الكبار عناية كبرى مقارنة بفلاسفة عصره منهم كانط، أفلاطون، هيوم، نيتشه.

– قدمت فلسفته رؤية جديدة بتجديده مفاهيم الفلسفات السابقة، وإبداعه لمفاهيم جديدة تخدم روح العصر وتسائل الراهن وتحدياته عبر مسائلة إنتاجاتهم لا من أجل تكرارها بل كشف المختلف والمتنوع فيها.

– انفتحت الفلسفة مع دولوز على مجالات وحقول معرفية وفنية لا تمت للفلسفة بصلة عبر انتشال مفاهيم لا فلسفية، والرمي بها في مسطحات محايثة للفلسفة، لزم عنها استمرارية وجود الفلسفة وديمومتها، وتوطيد علاقتها مع مختلف العلوم والفنون.

– النصوص الدولوزية تحتمل عدة تأويلات لها معان لا متناهية، لكثافتها وتنوعها، والتقائها مع حقول غير فلسفية.

– أسست الفلسفة الدولوزية لفكر اختلافي من خلال منحه مهام جديدة للفلسفة وهي إبداع المفاهيم، واستنطاق المعنى من الصور الفنية هو ما أعطى الحياة معنى جديد وحررها مما يسجنها، ومن الميتافيزيقا عن طريق تحويل الحياة إلى ظاهرة ونشاط فني إبداعي.

خاتمة:

وفي الختام نستنج أن دولوز قدم صورة جديدة للفكر تمكن المشتغل على الفلسفة من فهم معنى المتعدد والمتنوع والمختلف، ويتجاوز بذلك مفهوم المركز والتمثل والماهية واستطاع بفلسفته أن يعقد الصلة بين الفلسفة والفن، بين المعنى والعلامة، ومنح بذلك للفلسفة استمراريتها ووجودها، إنها أساليب تعبير فلسفية جديدة غير متعالية تستقصي التلقي الجمالي للفن، ولا يهم حسب دولوز صحة الأفكار أو خطأها، وإنما البحث عن المختلف والمغاير عبر منهج الإبداع والمقارنة، ولعل هذا ما يعكس تأثير فيلسوف السيرورة والتغير هيراقلطس على دولوز.

الشابي نور الدين. دولوز قارئا نيتشه. حول الفلسفة والاختلاف. *مجلة دراسات فلسفة* (عدد 03). (2014)

Sources and references:

1_ Anwar Mogheeth. The Politics of Desire: A study of Duroz's political philosophy in Gilles Deleuze's book The Politics of Desire (Volume 1). (Ahmed Abdel Halim Attia, the translators) Beirut, Lebanon: Dar Al-Farabi. (2011)

2_ Edmund Husserl. Philosophy is an exact science (Vol. 1). (Mahmoud Ragab, The Translators) Egypt: Supreme Council of Culture. (2002)

3_ Gilles Deleuze. Difference and Repetition (Vol. 1). (Wafa Shaaban, the translators) Beirut, Lebanon: Center for Arab Unity Studies. (2009)

4_ Gilles Deleuze. Bergsonianism (Vol. 1). (Osama Al-Hajj, the translators) Beirut, Lebanon: University Foundation for Studies, Publishing and Distribution. (1997)

5_ Gilles Deleuze. Nietzsche and Philosophy (Volume 1). (Osama Al-Hajj, the translators) Beirut: University Foundation for Studies, Publishing and Distribution. (1993)

6_ Friedrich Nietzsche. This Man (Volume 2). (Mujahid Abdel Moneim Mujahid, The Translators) Dar Al-Tanweer for Printing and Publishing. (2013)

7_ Chebbi Noureddine. Deleuze reading Nietzsche. About philosophy and difference. Journal of Philosophy Studies (No. 03). (2014)

8_ Bin Zarda Fatima Al-Zahra. Gilles Deleuze From Root to Rhizome Contemporary Western Philosophy (Volume 1). Difference Publications Algeria. (2013)

9_ Jamal Naeem. Gilles Deleuze and the renewal of philosophy
(Vol. 1). Morocco: Arab Cultural Center, Casablanca. (2010)

10_ Khamis Bu Ali. Gilles Deleuze, The Image of the Philosopher (Vol. 1). Algeria: Difference Publications Algeria. (2014)

11_ Adel Hadjami. Gilles Deleuze's Philosophy of Being and Difference (Vol. 1). Morocco: Dar Tebal Publishing. (2012)

12_ Abdul Ali Mazouz. Philosophy of Cinema (Vol. 1). Casablanca: Publishing and Distribution Company. (2017)

13_ Omar Muhaibel. From system to self (Vol. 1). Algeria: Difference Publications Algeria. (2007)

14_ Lakhdar Hamoum.. Cinema and the philosophy of thought according to Gilles Deleuze. Cultural Dialogue Magazine. Spring and summer issue. 2012. Dialogue of Civilizations Laboratory. Cultural diversity and philosophy of art. Abdelhamid Ben Badis University. Mostaganem. (2012)

المصادر والمراجع:

1_ أنور مغيث. *سياسيات الرغبة دارسة فلسفة دوروز السياسية ضمن كتاب جيل دولوز سياسات الرغبة* (المجلد1). (أحمد عبد الحليم عطية، المترجمون) بيروت لبنان: دار الفرابي. (2011)

2_ إيدموند هوسرل. *الفلسفة علما دقيقا* (المجلد 1). (محمود رجب، المترجمون) مصر: المجلس الأعلى للثقافة. (2002)

3_ جيل دولوز. *الاختلاف والتكرار* (المجلد 1). (وفاء شعبان، المترجمون) بيروت، لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية. (2009)

4_ جيل دولوز. *البرغسونية* (المجلد 1). (أسامة الحاج، المترجمون) بيروت لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. (1997)

5_ جيل دولوز. *نيتشه والفلسفة* (المجلد 1). (أسامة الحاج، المترجمون) بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. (1993)

6_ نيتشه فريديك. *هذا الإنسان* (المجلد 2). (مجاهد عبد المنعم مجاهد، المترجمون) دار التنوير للطباعة والنشر. (2013)

7_ الشابي نور الدين. دولوز قارئا نيتشه. حول الفلسفة والاختلاف. *مجلة دراسات فلسفة* (عدد 03). (2014)

8_ بن زردة فاطمة الزهرة. *جيل دولوز من الجذر إلى الجذمور الفسفة الغربية المعاصرة* (المجلد 1). منشورات الاختلاف الجزائر. (2013)

9_ جمال نعيم. *جيل دولوز وتجديد الفلسفة* (المجلد 1). المغرب: المركز الثقافي العربي الدار البضاء. (2010)

10_ خميس بوعلي. *جيل دولوز صورة الفيلسوف* (المجلد 1). الجزائر: منشورات الاختلاف الجزائر. (2014)

11_ عادل حدجامي. *فلسفة جيل دولوز ع الوجود والاختلاف* (المجلد 1). المغرب: دار تبقال للنشر. (2012)

12_ عبد العلي معزوز. *فلسفة السينما* (المجلد 1). الدار البيضاء: شركة النشر والتوزيع. (2017)

13_ عمر مهيبل. *من النسق إلى الذات* (المجلد 1). الجزائر: منشورات الاختلاف الجزائر. (2007)

14_ لخضر حموم.. السينما وفلسفة الفكر لدى جيل دولوز. مجلة الحوار الثقافي. عدد ربيع وصيف. 2012. مخبر حوار الحضارات. التنوع الثقافي وفلسفة الفن. جامعة عبد الحميد بن باديس. مستغانم. (2012)